بحث الشهر
جبران في عالمه الفكري

بقلم الدكتور نديم نعيمة

(٥)

في « النبي » (١) الصادر سنة ١٩٢٣ ، يبصر المصطفى ، « الذي كان فجرا لعصره » (٢٤)، سفينته التي لبث ينتظرها في مدينة اورفليس اثنتي عشرة سنة ، آتية من بعيد « كي تقله الى جزيرته التي كانت مسقط رأسه » . عندها يترك ابناء اورفليس جميع اعمالهم اليومية ويتحلقون حوله في ساحة المدينة مكتئبين ، ليشيعوه ويطلبوا اليه ان يترك معهم شيئا من حكمته قبل ان يغادر . ويرضى المصطفى ان يجيب على كل ما اختاروا ان يطرحوه عليه من اسئلة . فكان ان اجاب عن ستة وعشرين سؤالا هي مجموع كتاب النبي .

ليس علينا ان نذهب بعيدا في تخيلنا كي ندرك ان المصطفى ، نبي اورفليس ، ليس غير جبران نفسه الذي كان حتى سنة ١٩٢٣ قد مضى عليه في نيويورك ـ مدينة اورفليس ـ بعد ان ارتحل اليها من بوسطن عام ١٩١٢ حوالي الاثنتي عشرة سنة . كما انه ليس من الصعب ان نفهم بجزيرة المصطفى الام ، لبنان الذي كان ابدا موضوع تطلعات جبران وشوقه وحنينه . اما اذا شئنا ان نذهب بخيالنا الى ابعد من المدلولات المباشرة ، بدا لنا المصطفى بالمنظار الجبراني ، رمزا لذلك الانسان الذي بلغ به وعيه حد تحقيق ذاته العلوية ، حد التهيؤ للعبور من الانسان في ذاته الى الله فاصبح بالتالي على استعداد للانعتاق من ربقة الزمان والمكان والاتحاد من جديد بالعلوي المطلق . من هنا كان مجيء سفينته ـ اي الموت ـ لتقله الى موطنه الام ، الى العالم الافلاطوني المطلق الذي منه كان نزوحنا الاول وعنه كانت غربتنا الوجودية العظمى . اما اهل اورفليس فيمثلون المجتمع البشري في منفاه الزمني المكاني ، في غربته الكبرى عن الله في نفسه وفي الوجود ، وفي افتقاره الاعظم في تيهه الى يد نبوية مرشدة تقوده من الآني في نفسه الى المطلق ـ من الله في الانسان الى الانسان في الله . ولان المصطفى قد خبر بنفسه عبور التيه واجتياز الطريق المؤدي الى الله ، فقد اعتبر نفسه في مواعظه الى اهل اورفليس ذلك الدليل الهادي .

اذا نحن عرّينا التعاليم الجبرانية في النبي من جلبابها الشعري، بدت من حيث المضمون ، قائمة جميعا على فكرة اساسية واحدة هي ان الحياة واحدة في كل شيء وشاملة ولا متناهية . فالانسان ككائن حي ليس في وجوده الزمني المكاني المحدود سوى ظل لما هو عليه في حقيقته . ذلك لانه في حقيقته موصول بالحياة الكونية ولا يمكن بالتالي فصله عن الوجود اللامتناهي جميعا بكل من فيه وما فيه . وهل يتصور لانسان او لاي كائن آخر وجود على الاطلاق ان لم يكن مرتبطا كينونيا باشياء واشياء من حوله هي بدورها مرتبطة بغيرها وهكذا تدرجا حتى اللانهاية ؟ ان يحيا الانسان حقيقة ذاته اذن ، يعني ان يتخطى حدود ذاته الزمنية المكانية وان يتسع وعيا الى حد يحس عنده انه قد اتحد بكل انسان آخر واذاب داخل حدوده جميع الحدود . من هنا كان طريق الانسان الاوحد الى ذاته الحقة ، الى ذاته الكبرى الشاملة ، هو المحبة . ومن هنا ايضا كانت المحبة فاتحة عظات المصطفى لاهل اورفليس .

اذا كان ما من انسان الا وهو مرتبط كينونيا بجميع الاشياء في هذا الوجود اللامتناهي ، فما من انسان يستطيع ان يحب نفسه حقا الا اذا احب كل الناس وجميع الاشياء . من هنا كانت المحبة الحقة بالنسبة الى الانسان انعتاقا وصليبا في آن واحد : هي انعتاق لانها تحرره من حدوده الانانية الضيقة وترفعه الى ذلك المستوى من الوعي الارحب الذي يحس فيه انه اصبح لامتناهيا كما الله . وهي صليب من جهة اخرى ، لان النمو والتفتح محبة ، على الذات الكبرى يعني التشقق والتمزق ارباً بالنسبة الى الذات الصغرى التي هي البذرة والغلاف . ما من بذرة تتكشف عن النبتة الهاجعة فيها الا بعد ان تتشقق وتتمزق . وكذلك ما من انسان يستطيع ان يحقق ذاته الكبرى الا عن طريق نكران الذات . وهكذا يأتي كلام المصطفى الى اهل اورفليس:

« وكما تتوجكم المحبة فانها كذلك ترفعكم على الصليب
وكما انها لتنميتكم ، كذلك هي لتقليمكم ايضا . » (٢٥)

فالمحبة اذن ، التي هي المرشد الى ذواتنا الكبرى ، لا يمكن ان تنفصل عن الالم . ان الم التفتح والتمزق تحت التراب هو وحده الذي يشعر البذرة بالشجرة التي تتململ مستيقظة في داخلها . يقول المصطفى :

« ان المكم هو تكسر القشرة التي تغلف ما فيكم من وعي .
وكما ان على نواة الثمرة أن تنفلق كي يمتثل قلبها امام وجه الشمس ، كذلك يتحتم عليكم ان تعرفوا الالم . » (٢٦)

ما ان يرى الالم بهذا المنظار حتى يتحول لتوه الى نوع من الفرح. انه فرح البذرة التي تعاني الم الموت كشجرة في الغماط تحت التراب، كي تتحول نموا الى شجرة بالفعل . اما الالم المؤلم حقا والذي لا فرح فيه فلا يكون الا عند الذين لا يتعطون به ولا يفهمونه . اذا كانت ذاتنا الكبرى هي الله ، كان كل ما يتسبب في ايلامنا مجرد شاهد على ان ذاتنا لم تبلغ بعد من الرحابة حد ان تحتويه . ان نتسع لجميع الاشياء،

(١) راجع القسم الاول من هذا البحث في العدد الماضي

يعني ان ترتبط محبة بكل الاشياء وان نكون في سلام معها جميعا . فالالم اذن ، ان هو فهم على حقيقته تحول لحافز الى الاتساع والنمو ، وبالتالي الى الفرح . من هنا قول المصطفى :

« ان فرحكم هو الحزن فيكم وقد انخلع قناعه . وكلما امعن الحزن في تعميق ما يحتقره في كيانكم ، زدتم سعة لاحتواء الفرح . » (٢٧)

ان يكن الالم والفرح وجهين لحقيقة واحدة فالموت والحياة هما ايضا كذلك . ليس ما يموت في عالم لا متناه كالذي نحن فيه الا الجزئي المتناهي . ولكن الجزئي في مثل هذا العالم مرتبط ارتباطا كينونيا لا انفصام فيه بسائر الاشياء من حوله التي هي مرتبطة ايضا بغيرها وهكذا تدرجا حتى اللانهاية . فكل ما نعتبره جزئيا متناهيا اذن ، ليس في حقيقته الا اللامتناهي نفسه وقد بدا لحواسنا الحسيرة على غير صورته . انه يبدو لحواسنا المحدودة ابدا متنكرا . فنحن ما نفهم الموت على حقيقته حتى ندرك انه ليس فناء على الاطلاق . ان هو الا الجزئي المتناهي فينا ينصب في اللانهاية . انه عبور الله في الانسان الى الانسان في الله . من هنا قول المصطفى :

« ما الحياة والموت سوى شيء واحد تماما كما البحر والجدول .

وماذا في توقف الانفاس غير تحرير النفس من مده وجزره اللذين بلا قرار كي يرتفع ويتسع ويبلغ الله بلا تعثر . » (٢٨)

اذا كان الموت والحياة شيئا واحدا تماما كما الالم والفرح ، كان ان الحياة ليست ابدا نقيض الموت ولا الموت نقيض الحياة . فالحياة تعني النمو . وان ننمو يعني ان نكون في حال موت مستمر . من هنا كان كل موت في حقيقته ولادة جديدة وانتقالا في الوجود الى مرتبة اعلى وارحب . تماما كما هي كل ولادة ضرب من التقمص . وهكذا يتدرج الانسان في رحلته نحو الله ، ولادة بعد ولادة وموتا بعد موت في سلسلة متصلة فيتسع وعيه لذاته دائرة تلو دائرة حتى يتناهى بالنتيجة الى المطلق . فكان الذات في تصعيدها كما في قول المصطفى : « لسان لهب فيكم يغتذي نموا من نفسه . » (٢٩)

ونحن كلما جمعنا من انفسنا اكثر فاكثر في طريق تصعيدنا ، حياة بعد حياة وموتا بعد موت ، اي كلما تحول العالم الاصغر فينا الى العالم الاكبر الذي هو الله اللامتناهي والمطلق ، ازداد ادراكنا بانه لا يمكن لشيء ما ان يصدر عنا في الطريق الا وسيرتد يوما ما وفي مرحلة لاحقة ما ، الينا . ففي اللامتناهي لا يمكن لاي شيء ان يضيع او يضمحل . كذلك ، وبالقياس عينه ، لا يمكن لاي شيء ان ينزل بنا الا ونكون نحن في الواقع الذين هيانا له في انفسنا ودعوناه . فما دام ان الله هو ذاتنا الكبرى التي ستنتهي حتما اليها ، استحال ان يصيبنا او يحل بنا اي شيء من خارج تلك الذات . يقول المصطفى :

« ليس القتيل بريئا من دم نفسه ، ولا المسروق بلا مسئولية عن سرقة حلت به . ان للصالح حصة في ما يصدر عن الاشرار من شر ، وان صاحب اليد الناصعة ليس مغسول اليدين من اعمال السفلة.»(٣٠)

ان يكن الله هو الذات الكبرى لكل واحد منا ، فما من خير في هذا الوجود اللامتناهي الا وهو خير كل انسان بالضرورة . كما ان ما من شر يمكن لاي انسان ان يتنصل من مسئولية وجوده .

« انكم ، كما في موكب واحد ، تسيرون معا الى ذاتكم الالهية ...

وكما ان التقي والصالح لا يمكن ان يرتفع الى اسمى مما هو في ذات كل واحد منكم ، فان الشرير والضعيف لا يمكن ان ينحط الى ادنى مما هو ايضا في نفوسكم جميعا .

وكما ان ما من ورقة واحدة تصفرّ على شجره الا بالمعرفة الصامته لتلك الشجرة جميعا ، كذلك ما من فاعل شر يقوم بفعلته الا بمقتضى الارادة الخفية في نفوسكم جميعا . » (٣١)

وهكذا يبدو ان رفعة روحية في المسيح مثلا هي جزء لا يتجزا من خسة مادية في يهوذا الاسخريوطي . ذلك لان يهوذا والمسيح هما في الله واحد لا ينفصل .

ما من انسان اذن يستطيع ان يحقق ذاته الكبرى ويخلص ، في عملية انعتاق فردي . فكما ان النسر امعن في التحليق ، يبقى رهين الارض حيث عشه وفراخه ، فلا يتحرر حتى تشتد اجنحتهم جميعا فيواكبوه في تحليقه الاثيري ، كذلك ايضا هي حال اولئك الذين سمت نفوسهم وصفت وشفت من الشعراء والمفكرين والمرسلين والانبياء . فطالما بقي ولو قدر ذرة من الشر او الخسة او الحيوانية في اي نفس بشرية ، تعذر على اي نفس بشرية اخرى مهما بلغ سموها الروحي ومحاذاتها لله ، ان تنعتق وتخلص وتفلت نهائيا من دورات التقمص في دولاب الحياة الذي لا يعرف التوقف ابدا في دورانه ، فكان حال تلك النفوس السامية المشرفة على الانعتاق ، هي حال ذلك الفيلسوف السجين في اسطورة الكهف عند افلاطون ، الذي اطلق سراحه فما كان منه بعد ان ادرك النور الا ان وجد نفسه مسوقا بطبيعة ادراكه نحو العودة الى الكهف من جديد والمكوث فيه حتى يتحرر سائر رفاقه من السلاسل والعتمة . من هنا قول نبي جبران لاهل اورفليس وهو يهم بركوب البحر ومغادرتهم :

« اذا حدث ان تلاشى صوتي في آذانكم وامحت محبتي من ذاكرتكم ، فساعود عندها مرة اخرى اليكم .

قليلا ، وسيتخذ حنيني غبارا وزبدا لجسد جديد

قليلا ، وبعد ان اطلو هنيهة على سطح الريح

اعود فاتكور جنينا في بطن امراة اخرى. » (٣٢)

اذا نحن قسنا تلك الفترة التي قضاها المصطفى طافيا على سطح الريح بمقياس ادبي فكري ، بدت بالفعل قصيرة جدا . اذ ما انقضت خمس سنوات على مغادرته اورفليس حتى عاد فحبل به ووضع من جديد . لم تكن امراة اخرى هي التي حبلت به ووضعته كما سبق وتنبا بل كان جبران نفسه . اما اسم الوليد عينه هذه المرة فما كان « المصطفى » بل « يسوع » .

لقد ظهر (يسوع بن الانسان) ، كتاب جبران الثاني بعد«النبي» سنة ١٩٢٨ . اما كتابه الاول بعد النبي فكان كناية عن مجموعة من الاوابد والشذرات ، بعضها منقول عن كتاباته العربية ، بعنوان « رمل وزبد » . وقد سبق ان استشهد كثيرا بهذه الشذرات في هذا المقال .

قد يرى المتتبع لفن جبران الادبي ، شيئا من الجدة في «يسوع ابن الانسان » . اما دارس الفكر الجبراني فلن يجد في هذا الكتاب جديدا يذكر . والذي يحاوله جبران في هذا المؤلف ، هو ان يعطي صورة قلمية عن المسيح كما فهمه ، وذلك عن طريق جعل عدد من معاصري يسوع يتكلمون عنه كل من وجهة نظره الخاصة . حتى اذا اجتمعت هذه الآراء في ذهن القارىء خرج بالصورة التي اراد له جبران ان يخرج بها عن الناصري . أما اذا نحن اسقطنا الاسماء التاريخية والامكنة والاوضاع والحالات التي يستعين بها جبران على رسم يسوع ، بدت الصورة وكانها ليست تطويرا محدثا للمسيح كما هو في التوراة ، بل مسيح التوراة وقد تحول تحت قلم المؤلف الى مصطفى جبراني آخر . فهو كالمصطفى في النبي يوصف بانه « المختار المحبوب » (٣٣) الذي بعد ولادات سابقة متكررة قد اتى من جديد كما سياتي ايضا في المستقبل ليساعد في هدى الانسان وارشاده الى ذاته الكبرى . انه ليس الها تانس بل هو انسان عادي وابن ولادة عاديه ، يمكن عن طريق تساميه الروحي ووعيه لذاته الكبرى ان يرتفع بنفسه من الناسوت الى اللاهوت . اما رجوعه المتكرر الى الارض ، فرجوع النسر الذي يابى ان يستاثر بحريته الكاملة في الفضاء قبل ان يهجر جميع فراخه العش ويجاروه في الطيران . او هو رجوع سجين افلاطون الذي يابى ان يعطي نفسه كلية للحرية والنور قبل ان تنحل اصفاد جميع رفاقه ويخرجوا . وهكذا ياتي قول يسوع

جبران :

« واني ، لولا شهوة في والدة ، لعريت نفسي من افمطني وقفلت راجعا الى الفضاء .

ولولا الكآبة في كل واحد منكم لما رضيت ان البث معكم لانتحب . » (٣٤)

لم يكن مسيح جبران مسيحا بالمواضع والمسامح ولا مخلصا بالشفقة كما هو في الانجيل . ان عودته الى الارض كانت عودة روح عاتية جبارة مجنحة ، همها ان نوجه ليس الى مواطن الضعف في الانسان بل الى تلك القوة فيه التي من شأنها ان ترتفع به من الجزئي في نفسه الى الكلي ومن المتناهي الى اللامتناهي . ففي كلام احد معاصري يسوع على الناصري قوله :

« اني لامرض وانقبض امعائي عندما اسمع ضعيفي القلوب يعزون الى يسوع التواضع والدعة كي يبرروا قلوبهم الضعيفة ، وعندما اسمع المداسين المنسحقين يتحدثون في فقرهم الى العزاء والسلوى عن يسوع ، وكأنه دودة مضيئة الى جانبهم .

اجل ان قلبي لينطبق من هؤلاء الناس . فالذي أبشر به هو ذاك القناص العاني وذاك الروح العصي الذي لا يقهر » . (٣٥)

ويبلغ يسوع جبران حدّ ان يعيد صياغة الصلاة الوحيدة في الانجيل التي لقنها تلامذته بحيث تصبح خليقة جبرانيا على ما يبدو بشعني نبي صور على غرار المصطفى ، وفهمت رسالته على انها تعليم الانسان كيفية الاتساع بنفسه الى درجة تتطابق عندها مع روح الله وتتحد بها . وهكذا يردد يسوع جبران :

« ابانا الذي في الارض وفي السماء ،
مقدس هو اسمك ،
ولتتحقق مشيئتك معنا كما في الفضاء
....
اغفر برأفتك لنا ووسع في انفسنا كي يغفر بعضنا لبعض .
أرشدنا نحوك وامدد يدك الينا في ظلمتنا
فان لك الملك وفيك قوتنا واكتمالنا .» (٣٦)

ان نتوقف اكثر من هذا عند شخصية المسيح وتعاليمه كما رآها جبران يعني ان نقع في شيء من الترداد . ففي « النبي » بلغ جبران المفكر ذروته . اما مؤلفات ما بعد « النبي » وربما باستثناء « آلهة الارض » ، آخر ما صدر له في حياته سنة ١٩٣١ ، فليس فيها من حيث الفكر اي جديد يذكر . ف « التائه » الذي صدر بعد وفاته سنة ١٩٣٢ هو مجموعة امثال وأوابد قريبة من حيث الروح والاسلوب من السابق الذي ظهر قبل « النبي » بثلاث سنوات . اما « حديقة النبي » الذي ظهر سنة ١٩٣٣ بعد وفات جبران بسنتين ، فكتاب مرفوض بالجملة لانه مختلق مزور . فجبران الذي شاء ان يكون «حديقة النبي » معبراً عن حال نبيه المصطفى وتعاليمه بعد ان غادر مدينة اورفليس واستقر في الجزيرة التي كانت مسقط رأسه ، لم يمهله الموت ليكتب اكثر من مقطوعتين قصيرتين او ثلاث في ذلك الكتاب . اما المقطوعات الباقية فبعضها ترجمات انكليزية مقتطفة اعتباطا من تآليفه العربية الباكرة وبعضها الآخر موضوع على الارجح بقلم غريب في محاولة مموهة وغير موفقة لتقليد الاسلوب الجبراني . اما الحصيلة فكتاب منسوب الى جبران وقد اوصل فيه الفكر والشعر الجبرانيان الى حالة مؤسفة جدا من التشويش والفوضى .

يبقى لدينا اذن ، « آلهة الارض » الكتاب الكامل الاصيل في سلسلة مؤلفات جبران الذي كان بمثابة الخاتمة لحياته الفكرية والادبية . ولكم كانت تلك الخاتمة مناسبة حقا وطبيعية .

— ٦ —

« آلهة الارض » ، كناية عن قصيدة مسرحية طويلة في مقاطع « يجري فيها الآلهة الارضيون الثلاثة ، أرباب الحياة العمالقة » (٣٧) على حد تعبير جبران ، حوارا حول الانسان ومصيره .

ان جبران الذي كان في حياته الادبية كلها شاعر الغربة والحنين، بدا وكأنه قد وصل في « النبي » وفي « يسوع » ، النسخة الثانية المطابقة للمصطفى ، الى حالة من الاستقرار الفكري والروحي طالما تاق بكل جوارحه الى بلوغها . فالمصطفى والمسيح ، وهما كما يقومهما عند جبران ، الهان من مواليد الارض اصلا ، يعبران مصير الانسان ومنتهاه : في تصعيد عبر السامي الروحي والمحبة الكونية الشاملة نحو التطابق الكامل مع الله ، حقيقة الوجود اللامتناهية، والاتحاد نهائيا به . فهل أن جبران في آخريات حياته قد بدأ يعيد النظر في فلسفة نبيه ويسوعه ؟ والا فما معنى انه عوضا عن اله ارضي واحد ، عن فلسفة مصير انساني واحدة ، كما في « النبي » و (يسوع بن الانسان) قد جاءنا الآن في كتابه الاخير بثلاثة الهة ارضيين يبدو من حوارهم في القصيدة انهم على غير اتفاق ؟

ان جبران الذي كان لزمن ما يعاني من صراع صعب مع مرض عضال قد بدأ يحس بعد وقت قصير من كتابه « يسوع بن الانسان » ان الاقدار في ذلك الصراع ليست الى جانبه . لا بد انه ، كالمصطفى ، قد « رأى سفينته قادمة في الضباب لتقله الى جزيرة أجداده » . وليس مستبعدا عن انسان كجبران مسلح بقناعات المصطفى الصوفية ، ان يتوقف بين الفينة والفينة في رحلته الموجودة الموحشة نحو الموت ، ليروز في جعبته من جديد المستلزمات الفكرية لتلك القناعات .

لقد رأى المصطفى في موعظته الوداعية لاهل اورفليس ، ان ارتحاله عنهم سيكون موقتا وانه سيعود ثم يعود من جديد .

« قليلا ، وبعد ان اطفو هنيهة على سطح الريح ،
اعود فاتكور جنينا في بطن امرأة اخرى » .

ولكن ماذا عن هذه الحلقات المتصلة من الولادات المتلاحقة المتتالية واحدة بعد اخرى ، اذا كان منتهى الانسان الابعد ككائن متناه ، هو ان يبلغ اللانهاية ويتحد بها ، فان ذلك المنتهى لا شك ضرب من المستحيل . ذلك لان الدرب الى اللانهاية لا شك بلا نهاية. وان مطلب الانسان ، سالك ذاك الدرب تقمصا بعد تقمص ، سيكون قطعا بلا جدوى ان لم يكن بليدا مكرورا مملا . من هنا يرتفع صوت الاله الارضي الجبراني الاول :

« تعبة هي أنفاسي من كل ما هو كائن ،
واني لن احرك يدا لأخلق عالما او لامحو آخر .
انني ما كنت لاحيا لو كان باستطاعتي ان اموت لان اثقال الحقب ترسو على منكبيّ
وأنين البحار الذي بلا قرار يفضني منامي .
آه لو استطيع ان أتوه عن المقصد الام وانلاشى ككوكب محترق
آه لو استطيع ان اعرّي الوهيتي من مطلبها والفظ خلودي في المدى وأنعدم .
آه لو أستهلك وأنسل من ذاكرة الزمن الى خواء اللامكان.»(٣٨)

وفي مكان اخر يقول هذا الاله نفسه :

« فجميع ما هو انا ، وجميع ما هو كائن على الارض
وجميع ما سيكون ، لا يحرك نفسي
صامت هو وجهك
وفي عينيك تغفو ظلال الليل
ولكن مرعب هو صمتك
ومرعب هو انت . » (٣٩)

اذا كان للانسان ان يشبه في تصعيده نحو اللامتناهي بمتسلق جبلا ، فان مثل هذه اللحظات السوداوية العبثية اليائسة لا تحصل عنده الا حين يدير عينيه نحو القمة اللامتناهية الارتفاع . فكأنه يحس في اعماقه انه من المستحيل بلوغها . ولكنه ما ان يلقي بناظريه انحدارا الى المنحنى الذي تم تسلقه حتى يتغير شعوره .

فتحل الثقة بالنفس محل اليأس ، والتفاؤل مكان التشاوم والرجاء محل العبثية والقنوط .ذلك لان مرحلة يمكن ان تبدأ لا بد قابلة لان تختتم . اذ كيف للذي له بداية ان يكون بلا منتهى. ولا بد ان جبران في رحلته الموحودة نحو الموت قد كان له ان يستدير الى هذا الوجه المقابل من المستلزمات الفكرية لفلسفة مصطفاه .وهكذا يأتي صوت الاله الثاني ، وكان عينيه متجهتان تفاؤلا نحو المنحدر الذي اجتيز وليس يأسا نحو القمة اللامتناهية بعدا دونه .ففلسفته هي ان ارتفاع القمة لا شك جزء لا يتجزأ من انخفاض الوادي بعيدا تحت قدميه . انه الآن قد ارتفع فوق الوادي في تصعيده ، دليلقاطع على انه لا محالة قاهر يوما القمة . ذلك لان القمة هي اقصى نقطة يستطيع الوادي ان يرتفع باعماقه اليها . ان رحلة الانسان الى الله هي رحلة من الوادي في نفسه الى القمة ، انها رحلة في الداخل لا في الخارج . يقول الاله الثاني للاول .

« نحن المدى الابعد ونحن اعلى العلو ،
والذي بيننا وبين الابدية التي بلا حدود
ليس الا تحرقنا المحموم الذي بعد لم يتبلور
والا مقاصد ذلك التحرق .
انك تناجي المجهول
والمجهول ، مسربلا بالضباب المتهادي
قاطن في ذات نفسك .
اي ، في ذات ذاتك برقد مخلصك
ويرى في اغفائه ما لا تراه عينك المستيقظة .
.....
توقف وانحدر ببصرك الى العالم
وابصر ابناء حبك الذين لم يبلغوا الفطام .
الارض هي مسكنك ، والارض عرشك ،
وعاليا ابعد من أقصى اماني الانسان جموحا
ترتفع يدك حاملة مصيره . » (٤٠)

الا ان صوتا آخر ، ليس فيه من تشاؤم الاله الاول ولا من تفاؤل الاله الثاني ، كان لا يلبث ان يدغدغ اذن جبران في رحلته الموحودة نحو الموت . هو صوت ثالث كان يأتيه ربما من ماضي شبابه الباكر في « الاجنحة المتكسرة » و « دمعة وابتسامة » . انه ليس بعضا من صوت المصطفى ، ولكنه في الوقت نفسه ليس نشازا بالنسبة اليه . هو صوت من قد بدأ يقتنع ان الانسان قد شغل في التفكير بالحياة وفي فلسفتها الى درجة نسي معها ان يحياها . ان خيرا من المتسلق المكدود الذي ترعبه شواهق القمة اللامتناهية في علوها فيبأس ، او الذي يقريه دنو الوادي وانقهارها فيتفاءل ، لشاب غيبه الحب المذهل السكران في غمرة المروج المترعة النشوى بخمرة الربيع ، فخلى ذاهلا امور الكون للكون وانشل على صدر الرفيقة ذوبا من الخدر الحنون . وهكذا يرتفع صوت الاله الثالث مؤنبا رفيقيه ومتوسلا اليهما ان يوقفا ما هما فيه من حوار فارغ وان يتجها بانظارهما الى عاشقين متيمين متعانقين في ذهول آثيري بين ازاهر المرج المنور على كتف الوادي :

« شقيقيّ ، يا شقيقاي ،
هناك عرس في الوادي .
انه ليوم اوسع من ان يدون
.....
اما نحن ، فسيفيبنا الشق
عسى ان نستفيق على فجر عالم جديد
واما الحب فسيبقى
ولن تمحي ابدا بصماته .
كوره المقدس في لهب ،
الشرر يتعالى ، وكل شرارة كوكب .
ولكم هو أجدى بنا واحكم
ان ننسحب بالوهيتنا الارضية الى ركن قصي ونهجع
ونترك للحب ، ببشريته وضعفه ، ان يتولى قيادة اليوم الآني . » (٤١)

هكذا اختتم جبران غربته التي استغرقت حياته كلها . لقد عاد ثانية الى حب « الاجنحة المتكسرة » ، الى الحب البشري الفطري غير المفلسف ، ليسلمه دفة القيادة . هكذا كان لفكره في اخريات ايامه ، كما يبدو ، ان يندار رجوعا الى منشئه ومنطلقه الاول ايام شبابه الباكر . انها لدورة كاملة تلك التي قام بها ذلك الفكر ، دورة كانت منسجمة كل الانسجام ـ وربما عن غير وعي من جبران ـ مع عقيدة التقمص . ها ان شجرة الارز الجبارة التي كانها جبران النبي تعود مجددا الى البذرة التي كانتها في البدء ، الى الحب البشري الفطري غير المفلسف ، ربما كي تعود « فتستفيق ثانية على فجر جديد » .

نديم نعيمة

٢٤ ـ	The Prophet	ص ٣
٢٥ ـ م . ن		ص ١٥
٢٦ ـ م . ن		ص ٦٠
٢٧ ـ م .ن		ص ٣٥ .
٢٨ ـ م . ن		ص ٩٠ ـ ٩١ .
٢٩ ـ م .ن		ص ٩٧ .
٣٠ ـ م . ن		ص ٤٧ .
٣١ ـ م . ن		ص ٤٦ ـ ٤٧ .
٣٢ ـ م . ن		ص ١٠٥ .
٣٣ ـ	Jesus The Son of Man	ص ١٩
٣٤ ـ م . ن		ص ٤ .
٣٥ ـ م . ن		ص ٦٠ .
٣٦ ـ م . ن		ص ٤١ .
٣٧ ـ	The Earth Gods	ص ٣ .
٣٨ ـ م . ن		ص ٥ ـ ٦ .
٣٩ ـ م . ن		ص ٢٢ .
٤٠ ـ م .ن		ص ٣٨ ـ ٤١ .

*

١ ـ المجموعة الكاملة جبران خليل جبران ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠

2	Sand and Foam	New York 1926
3	The Prophet	New York 1923
4	The Forerunner	New York 1920
5	Jesus The Son of Man	New York 1928
6	The Earth Gods	New York 1931